

الفصل العاشر

المد العثماني

(١٣٠٠ - ١٥١٦)

١ - الازدهار الثاني في بيزنطة ١٢٦١ - ١٣٧٣ .

أعيدت الإمبراطورية البيزنطية بلا إراقة دماء في ظل أسرة بلايولوجية جديدة عام ١٢٦١ ، وبقيت برغمها حوالي قرنين من الزمان وانتقص مز أطرافها تقدم المسلمين في آسيا وأوربا ، وتوسع الصقلية في مؤخرتها وتناز الأجزاء المفرقة التي استقلت عنها على يد أعدائها المسيحيين الذين استباحوا القسطنطينية عام ١٢٠٤ - النورماندين والبندقيين والجنوبيين . وتخلفت الصناعة في مد الإمبراطورية ، ولكن منتجاتها كانت تحمل على سفن إيطالية لا تدفع إيراداً للخزانة . ولم يبق من الطبقة الوسطى كثيرة العدد إلا بقية وفوقها نبلاء مترفون ، ومطارنة ذوو ملابس فضفاضة ، لم يتعلموا شيئاً من التاريخ ونسوا كل شيء اللهم إلا امتيازاتهم . وتحتهم طبقات من من رهبان مشاغبين خلطوا التقوى بالسياسة ، وملاك مزارعون هبطوا إلى مستأجرين كما هبط الفلاحون المستأجرون إلى عبيد أرض وحلم العمال اليدويون بمدينة فاضلة تقوم على المساواة . وطردت ثورة في سالونيك (١٣٤١) الطبقة الأرستقراطية ، ونهبت القصور وأقامت جمهورية شبه شيوعية حكمت ثمانى سنوات قبل أن تقضى عليها قوات الجيش المسيرة في العاصمة . وظلت القسطنطينية مركزاً زاخراً بالتجارة بيد أن أحد الرحالة المسلمين لاحظ عام ١٣٣٠ « كثيراً من البيوت المهتمة والحقول المبدورة في داخل أسوار المدينة » ، وكتب السفير الأسباني روى جونزاله

ده كلافيجو حوالى عام ١٤٠٩ يقول : « فى كل مكان فى أنحاء العاصمة توجد القصور العظيمة والكنايس والأديرة ولكن معظمها أطلال » . فقد هجر المجد ملكة البوسفور .

وفى وسط هذا الاضمحلال السياسى امتزج التراث اليونانى النفيس أبدأ فى الفلسفة بالتقاليد البيزنطية الشرقية فى العمارة والتصوير ليؤلف الأنشودة الثقافية للإمبراطورية الرومانية الشرقية . ولبثت المدارس تشرح أفلاطون وأرسطو وزينون الرواقى ، وإن تحاشوا أبيقور باعتباره ملحداً ، ونقح العلماء النصوص الكلاسيكية وذيّلوها بالحواشى . وصنف ماكسيموس بلانوديس المبعوث البيزنطى إلى البندقية « مجموعة الشعر اليونانى » وترجم الآثار الكلاسيكية اللاتينية إلى اليونانية وأعاد بناء جسر ثقافى بين بيزنطة وإيطاليا وتوضح سيرة تيودوروس ميتوتشيتيس هذه النهضة الباليولوجية . فلقد كان كبير وزراء أندرونيقوس الثانى وفى الوقت نفسه من أعلم علماء زمانه . وأغزرهم إنتاجا ولقد كتب عنه نيقفورس جريجورس وهو عالم ومؤرخ يقول : « لقد كان يقف جهده كله من الصباح إلى المساء على الشئون العامة ، كأنما لا علاقة له بالدراسة ولكنه يصبح بعد مغادرته القصر وفى الجانب الأخير من المساء مستغرقاً فى الدراسات بدرجة عالية كأنه دارس لا علاقة له البتة بمهمة أخرى » . وقد ألف تيودوروس فى التاريخ والشعر والفلك والفلسفة ، بتفوق لا يضارعه فيه يونانى آخر فى هذا القرن الرابع عشر . وخسر فى الثورة التى خلعت مولاه عن العرش منصبه وداره وماله وألقى به فى السجن ، واعتات صحته فسمح له أن ينفق أيامه الأخيرة فى دير « المخلص » فى كورا (أى فى الحقول) . الذى زين جدراناه بفسيفساء من أجمل ما فى التاريخ البيزنطى .

واستعادت المناظرة القديمة بين الأفلاطونيين والأرسطيين مكانتها . فدافع الإمبراطور جون السادس كانترا كوزين عن أرسطو ، بينما ظل

أفلاطون إله جمستوس بليثو . ولقد درس هذا الفيلسوف الذي يعد من أشهر السفسطائيين اليونان في بروسا بأسيا الصغرى ، عندما أصبحت هذه المدينة عاصمة الزحف العثماني ودرس على أحد اليهود هناك حكمة الزرادشتيين حتى إذا عاد إلى مسقط رأسه بيلوبونيزس ، وقد عاد إليها اسم موريا - ترك فيما يبدو العقيدة المسيحية . واستقر في مسترا ، فأصبح قاضياً وأستاذاً في آن واحد . وكتب عام ١٤٠٠ رسالة يحمل عنوان أفلاطون ، « القوانين » اقترح فيها أن تحل ديانة الإغريق القدماء محل المسيحية والإسلام ، بمجرد تحويل جميع آلهة الأولمب ، ما عدا زيوس إلى شخصيات رمزية لعمليات إبداعية أو أفكار ، ولم يعرف بليثو أن الأديان تولد ولا تصنع . ومع ذلك فقد اجتمع حوله التلاميذ مشغوفين ، وقدر لأحدهم وهو جوهانز بساريون أن يكون الكاردينال الدارس للآثار الكلاسيكية في إيطاليا ، ولقد سحب كل من جمستوس وبساريون الإمبراطور جون الثامن إلى فرارا وفلورنسه (١٤٣٨) لحضور المجلس الذي اتفقت فيه الكنيسة اليونانية والرومانية في علوم الدين وفي السياسة . وفي فلورنسه حاضر جيمستوس عن أفلاطون لصفوة من المستمعين ، وكاد يتأثر عصر النهضة الإيطالية . وهناك أضاف كنية بليثو (الكامل) إلى اسمه ، وأخذ يلعب باسمه جمستوس ومعناه « التام » وأفلاطون وعاد إلى مسترا ولم ينشط في علوم الدين ، فأصبح كبير أساقفة ومات بالغا من العمر خمسا وتسعين سنة (١٤٥٠) .

وكان البعث الفني ملحوظاً دموودة الفتوة إلى الآداب . وكانت الموضوعات والرسوم لا تزال كهنوتية ، بيد أن لمسة من منظر خلوى أو نسمة من الطبيعة ودفناً جديداً ينم عنه الخط واللون قد أسبغ الحياة على الفسيفساء بين حين وحين . وفي الفسيفساء التي كشف عنها حديثاً ديركورا « مسجد قاهرية الجامع » حيوية دافقة جعلت المؤرخين الغربيين يعترفون

بأنهم يرون فيها تأثيراً إيطالياً جديداً . وتراخت القبضة الكهنوتية عن الصور الجدارية التي حلت محل الفسيفساء ، باهظة النفقة في زخرف الكنائس والقصور وظهرت رسوم من الخيال الريح والقصص الدنيوى إلى جانب قصص القديسين . ومع ذلك تشبث صناع الأيقونات بالطراز الموروث القديم ، أشكال ضامرة ووجوه يحرقها ورع طهرى غائبة بصورة أخاذة عن أخلاقيات العصر . وتعرض حينذاك تصوير المنمنمات البيزنطى لانحلال كبير ، بيد أن نسج الرسوم التصويرية بالحرير ظل ينتج روائع لا تنافس في العالم الغربى ويعود تاريخ ما يسمى « زنار شارلمان » إلى القرن الرابع عشر ، أو الخامس عشر ، ولقد نسج صانع بارع على قاعدة من الحرير المصبوغ بالزرقة صممها فنان ، بخيوط من الفضة والذهب ، مشاهد من حياة مريم والمسيح وقديسين مختلفين . وتحققت آثار رائعة مماثلة في التصوير على النسيج في ذلك العصر في سالونيك والصرب وبلغاريا وروسيا .

وعادت اليونان مرة أخرى مركزاً للفن العظيم . وما كاد القرن الثالث عشر يشرف على نهايته حتى كان الفرنجة الذين نثروا على الأماكن الكلاسيكية القلاع البهيجة قد أدخلوا السبيل للقوة البيزنطية ، وفي عام ١٣٤٨ أرسل الإمبراطور جون السادس ابنه عمانويل ليكون حاكماً على المورة ، فأقام مقره المحلى على تل مشرف على إسبرطة القديمة . فوفد على العاصمة الجديدة نبلاء وأعيان ورهبان وفنانون وعلماء وفلاسفة وبنيت أديرة فخمة ، واحتفظت ثلاثة منها في كنائسها ، ببعض صورها الجدارية التي ترجع إلى القرون الوسطى : ديراً متروبوليس وبريليبتوس من القرن الرابع عشر وبانتاتسا من أوائل القرن الخامس عشر ، وهذه هي أحسن الجداريات في التاريخ البيزنطى الطويل ، وهى تضارع خير ما أنتجته إيطاليا في العصر نفسه من الصور الجدارية بدقة رسمها ورشاقة صورها الفياضة وعمق وإشراق ألوانها ، والحق ، أنها تدين

ببعض ما تتسم به من الروعة إلى كيا بوجيوتو أودكشيو - وهم جميعاً يدينون بالكثير للفن البيزنطى .

وعلى الشاطئ الشرقى لبلاد اليونان ، على ارتفاع قمة « جبل أثوس » أقيمت الأديرة فى القرن العاشر ، وظلت تقام هناك فى معظم القرون بعد ذلك فى القرن الرابع عشر بانتوكراتور الفخم ، وفى القرن الخامس عشر دير القديس بول . ولقد نسب إبان فترة التقهقر « دليل يونانى للتصوير » يرجع تاريخه إلى القرن الثامن عشر ، أحسن الجداريات إلى عمانويل بانسيلينوس السالونيكى الذى « أظهر تفوقاً وحدقاً فى فنه حتى وضع على رأس جميع المصورين القدماء والمحدثين » ، وليس من المستطاع التحقق من تواريخ عمانويل وآثاره فقد يرجع إلى القرن الحادى عشر أو السادس عشر ، ولا يستطيع أحد أن يجزم بما صدر عن يده من الصور التى فوق جبل أثوس .

وبينما كان الفن البيزنطى يجتاز هذا الوجد الأخير فى تاريخه أفل نجم الحكومة البيزنطية . فقد اضطرب نظام الجيش وضمحل الأسطول ، وسيطرت سفن جنوه والبندقية على البحر الأسود ، وأخذ القرصان يتجولون فى الأرخبيل اليونانى ، واستولت على غاليبولى (١٣٠٦) فرقة مرتزقة من قطلونية - « وهى الشركة القطلونية الكبرى » - وفرضت الإتاوات على تجارة الدردنيل ، وأنشأت جمهورية من اللصوص فى أثينا (١٣١٠) ، ولم توقع حكومة فى القضاء عليهم وتركوا تحت رحمة شططهم . وانضم البابا كليمنت الخامس عام ١٣٠٧ إلى فرنسا ونابلى والبندقية فى مؤامرة لاستعادة القسطنطينية . وفشلت المؤامرة ، بيد أن الأباطرة البيزنطيين لبثوا سنوات كثيرة يستشعرون الخوف من الغرب المسيحى حتى لم يكن عندهم من النشاط والحمية ما يدفعون به الزحف الإسلامى وما كاد هذا الخوف يتبدد حتى كان العثمانيون على الأبواب .

ولقد اشترى بعض الأباطرة هلاكهم بأنفسهم . ففي عام ١٣٤٢ تورط جون السادس كانتاكوزين في حرب أهلية وطلب العون من أورخان سلطان آل عثمان فأرسل إليه أورخان السفن وساعده في الاستيلاء على سالونيك ، فما كان من الإمبراطور المعترف بالجميل إلا أن أرسل إليه ابنته تيودورا لتكون زوجة ثانية له ، وبعث إليه السلطان بفرق جديدة تتألف من ستة آلاف جندي . وأخذ جون باليولوج على عاتقه أن يخلعه . فما كان من جون كانتاكوزين إلا أن نهب الكنائس القسطنطينية ليدفع إلى أورخان ثمن عشرين ألف جندي تركي آخرين ووعد السلطان بحصن في شيرزونيس بتراقيا ، وفي لحظة انتصاره الظاهري انقلب الشعب عليه وعده خائناً ، وحولته الثورة في ليلة واحدة من إمبراطور إلى مؤرخ - (١٣٥٥) فاعتزل في دير ، وكتب تاريخ عصره كمحاولة أخيرة لإرباك أعدائه .

ولم يجد جون الخامس باليولوجس العرش ذلولا ، فذهب إلى روما يستشفعا (١٣٦٩) ، ووعد ، في مقابل ما يقدم له من عون ضد الأتراك أن يدخل شعبه في طاعة البابوية ، وأنكر الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية أمام المذبح الكبير للقديس بطرس . ووعد البابا إربان الخامس بأن يمد له يد العون ضد الكفار ، وأعطاه رسائل إلى أمراء العالم المسيحي ، ولكن هؤلاء الأمراء كانوا منصرفين إلى شئون أخرى . وبدلا من أن تقدم له البندقية المساعدة المشودة اعتبرته رهينة في مقابل الديون اليونانية . وأحضر ابنه عمانويل المال المطلوب ، وعاد جون إلى القسطنطينية أفقر مما رحل عنها ، وأنكره شعبه لأنه حنث بعهده للمذهب الأرثوذكسي . وفشل في محاولة ثانية للحصول على المدد من الغرب ، فاعترف بالسلطان مراد الأول مولى عليه ، ووافق على أن يمد الجيش العثماني بالمدد العسكري ، وقدم ابنه الحبيب عمانويل ليكون رهينة على الوفاء بعهده وهدأت نائرة مراد فترة ما وتنكب بيزنطة ، وتمول لإخضاع أمارات البلقان .

٢ - أمارات البلقان تلتقى بالترك ١٣٠٠ - ٩٦

لقد كان القرن الرابع عشر إلى ذلك الوقت بالنسبة لأمارات البلقان بمثابة القمة في تاريخها . . . وعمل الصقالبة الأشداء في ولاشيا وبلغاريا والصرب والبوسنة وألبانيا على قطع الأخشاب من الغابات والبحث عن المناجم وفلاحة الأرض ورعى قطعان الماشية وكانوا يحرصون على تربية دوابهم . وحمل الصقالبة والإيطاليون والمجريون والبلغار واليونان واليهود تجارة الشرق والغرب من بحر الأدرياتي إلى البحر الأسود ومن البحر الأسود إلى البلطيق ، وكانت المدن تدر عليهم الرزق كلما ساروا .

وكان الرجل العظيم من الصرب في هذا القرن هو ستيفن دوشان . ولقد أنجبه والده ستيفن أروش الثالث في انفلاتة قصيرة عن روابط الزوجية وسماه بهذا الاسم المحبوب دوشا - أى الروح - وتوجه ولياً للعهد حتى إذا جاء ابن آخر شرعى وحمل بدوره ألقاباً محببة ، نخلع ستيفن أباه ، وشنقه وحكم بلاد الصرب بيد قوية مدى جيل كامل . وكتب أحد معاصريه عنه يقول : « كان أطول رجال زمانه وأبشعهم منظرأ » ، واغتفرت له الصرب كل شيء لأنه شن حرباً مظفرة . فقد درب جيشاً جراراً ، وقاده بحنكة ، وفتح البوسنة وألبانيا وأيروس وأكارنانيا وأينوليا ومقدونيا وتساليا ونقل عاصمة ملكه من بلجراد إلى سكيلجة حيث جمع برلماناً من النبلاء ، وناشده أن يوحد ويجمع قوانين ولاياته المختلفة ، وكانت ثمرة ذلك هي : « زابونيك تساد دوشانه » أى « مجموعة قوانين القيصر دوشا » (١٣٤٩) وهى تكشف عن مستوى في التطور القانوني والعرف المتمددين لا يقل كثيراً عما في أوروبا الغربية ، وأفاد الفن الصربى في القرن الرابع عشر من هذه النهضة السياسية في التمويل وربما في الحفاظ حتى ضارع الازدهار المعاصر في القسطنطينية والمورة ، فأقيمت الكنائس الفخمة ، وكانت الفيضاء فيها أكثر

حرية وحياء مما سمح به الاتجاه الكهنوتي المحافظ في العاصمة اليونانية .
وفي عام ١٣٥٥ حشد دوشان جيوشه للمرة الأخيرة . وسألهم هل يؤثرون
أن يسيروا ضد بيزنطة أم ضد هنغاريا . فأجابوا أنهم على استعداد لمتابعته
إلى أى مكان يختاره لقيادتهم . فصاح « إلى القسطنطينية » ومرض في
الطريق ومات .

وكانت إمبراطوريته من التنافر إلى حد لا يجمعها غير رجل له ذكاء نافذ
ونشاط منظم ، فشقت البوسنة عصا الطاعة ، واتمست لحظة موالية ، في كنف
ستفين ترتكو ، لقيادة البلقان . وحصلت بلغاريا على المرحلة الأخيرة من
مراحل عظمتها في عهد جون الإسكندر . وانفصلت ولاشيا ، التي كانت في
يوم من الأيام جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية (١٢٩٠) وحكمت دلتا
الدانوب الشاسعة . وخرجت ملدافيا عن ولائها لهنغاريا (١٣٤٩) . ودام
الترك هذه الدويلات المتنافرة حتى قبل أن يجعل جون الخامس باليولوجس
من بيزنطة التزاماً إقطاعياً لمراد الأول . وقاد سليمان الابن المقدم للسلطان
أورخان الجيوش التركية لمعاونة جون السادس كانتاكوزين ، فتسلم أو أخذ
مكافأة له ، حصن زمبه على الجانب الأوربي للدردنيل (١٣٥٣) ولما هدم
الزلازل غاليبولى المجاورة دخل سليمان المدينة العزلاء واستجاب الأتراك
المستعمرون لدعوته فعبروا من الأناضول وانتشروا على طول الشاطئ الشمالى
لبحر مرمرة وكادوا يبلغون القسطنطينية نفسها وزحف سليمان بجيش متزايد
صوب تراقيا واستولى على أدرنة (١٣٦١) . وبعد خمس سنوات جعل
منها مراد عاصمته الأوربية . وفي هذا المركز صوب الأتراك ضرباتهم مدى
قرن من الزمان إلى إمارات البلقان المنقسمة على نفسها .

وأدرك البابا اربان الخامس مغزى هذا التسلسل التركي إلى أوربا فاستنفر
العالم المسيحي بأسره لحرب صليبية أخرى . فاتجه جيش مؤلف من
الصرب والهنغارين والولاشيين ، ببسالة صوب أدرنة . وأقاموا عند نهر
مارتزا احتفالاً بزحفهم الذى لم يلق مقاومة ، وفيما هم يشربون الأنخاب

يعربدون إذا بهم يفاجأون بهجوم ليلي من قوة تركية صغيرة بالقياس إليهم .
وذبح كثيرون قبل أن يتمكنوا من حمل أسلحتهم ، وغرق كثيرون آخرون
وهم يحاولون الانسحاب عبر النهر وفر الباقون (١٣٧١) . وفي عام ١٣٨٥
استسلمت صوفيا وستط نصف بلغاريا في أيدي العثمانيين . واستولوا عام
١٣٨٦ على نيس وعلى سالونيك عام ١٣٨٧ . وأصبحت اليونان بأسرها
مكشوفة أمام الأتراك .

وأوقفت بوسنه الصغرى الزحف في غضون سنة بطولية واحدة . وضم
ستيفن توتكو جنوده إلى جنود الصرب بقيادة لازار الأول وهزموا
الأتراك في بلوشنيك (١٣٨٨) . وبعد عام سار مراد غرباً على رأس
جيش فيه فرق كثيرة من الجند المسيحيين . والتقى في قوصوه بحلف من
الصرب والبوسنيين والمجريين والفلاشين والبلغار والألبان والبولفرين
وإدعى فارس حربى اسمه ميلوش كوبيلتش ، أنه آبق في الخدمة العسكرية
وجاسوس واستطاع بذلك أن يشق طريقه إلى خيمة مراد وأن يغتال
السلطان فضرب حتى مات . واستثار ابن مراد ووريثه بايزيد الأول
الحمية الغضوب في نفوس الأتراك وقادهم إلى النصر . فأسر الملك لازار
وقطعت رأسه وأصبحت الصرب إمارة إقطاعية تدفع الجزية للأتراك ،
وأرغم ملكها الجديد ستيفن لازار فتش على إرسال السلاح والرجال إلى
بايزيد ، وفي عام ١٣٩٢ انضمت ولاشيا في عهد جون شيشمان ، إلى
قائمة الدول البلقانية التي تدفع الجزية للعثمانيين . ولم تقو على الدفاع غير
بلغاريا وبيزنطة .

وفي عام ١٣٩٣ غزا بايزيد بلغاريا . وسقطت ترنوفو بعد حصار دام
ثلاثة أشهر ، وودنت الكنائس وأضرمت النيران في القصور ودعى زعماء
النبلاء إلى اجتماع ، ثم أعمل السيف فيهم . فاستصرخ البابا مرة أخرى العالم
المسحى ودعا الملك سيجمند ملك هنغاريا ، أوربا لحمل السلاح . ومع

أن فرنسا كانت مشغولة بصراع حياة أو موت مع إنجلترا إلا أنها أرسلت قوة من الفرسان تحت قيادة كونت نيفير ، وجاء كونت هوهنزولون والسيد الأعظم لفرسان القديس يوحنا مع أتباعهما ، وأحضر أمير بلتين ثلثة من الفرسان الباقارين ، وأنكرجون شيشمان تبعية الإقطاعية وجاء بجنده ليحارب تحت قيادة الملك الهنغاري .

وسار الجيش المتحد الذي يتألف من ستين ألفاً من الجنود الأشداء عبر الصرب وحاصر الحامية في نيكوبوليس . وبلغهم التحذير بأن بايزيد في طريقه ، ومعه جيش من آسيا لرفع الحصار ، فوعد الفرسان الفرنسيون وقد لعبت الخمر والنساء برءوسهم بأن يبذلوا هذا الجيش ، وقالوا مفاخرين لو سقطت السماء على الأرض فسيرفعونها برماحهم ، أما بايزيد فقد أقسم ليربطن جواده بالمذبح الرفيع في كنيسة القديس بطرس في روما ووضع ضعف قواته في المقدمة بخطة حربية بادية الوضوح . فاندفع الفرسان الفرنسيون وسط هذه القوات مستشعرين للنصر ، ثم وسط عشرة آلاف من الانكشارية ثم وسط خمسة آلاف من الفرسان الأتراك ، ثم هجموا مصعدين في غير تبصر أحد التلال ، وإذا بهم يواجهون وراء القمة مباشرة الجزء الرئيسي من الجيش التركي المؤلف من أربعين ألفاً من حملة الرماح . وحارب النبلاء ببسالة وكانوا بين قتيل وأسير ولائذ بالفرار ، وباندحارهم وقع الاضطراب في صفوف المشاة المتحالفين خلفهم . ومع ذلك فقد كان الهنغاريون والألمان يردون الأتراك على أعقابهم بينما كان ستيفن لازارفتش أمير الصرب يقود خمسة آلاف من المسيحيين ضد الجيش المسيحي وانتصر في موقعة نيكوبوليس الحاسمة لمصلحة السلطان (١٣٩٦) .

وثارت ثائرة بايزيد عندما رأى اللحم الغفير من رجاله صرعى في حومة القتال ، وعندما سمع ما زعمته الحامية التي أنقذت من أن المحاصرين المسيحيين قتلوا أسراهم من الترك ، فأمر بقتل أسراه البالغين عشرة آلاف

رجل . وسمح لكونت نيفير أن يتخير أربعة وعشرين فارساً في مقابل الفدية التي يحضرونها . وذبح آلاف من المسيحيين في مقتلة دموية استمرت من طلوع الشمس إلى فترة متأخرة من المساء ، حتى توصل قواد السلطان أن يخلى سبيل الباقيين ؛ وظلت بلغاريا منذ ذلك اليوم إلى عام ١٨٧٨ ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية وبذلك استولى بايزيد على معظم اليونان ، ثم اتجه صوب القسطنطينية .

٣ - السنوات الأخيرة للقسطنطينية ١٣٧٣ - ١٤٥٣

لم تكن هناك حكومة جديدة تماماً بالسقوط كالحكومة البيزنطية . فلم ترسل فرقاً من الجنود إلى الجيوش المسيحية في مارتزا وقوصوه أونيكوبوليس لأنها فقدت الرغبة في الدفاع عن نفسها وعمجزت عن إقناع اليونان الممعنين في السفسطة بأن الاستشهاد في سبيل الوطن عمل مجيد ونبيل ، فقد جهزت اثني عشر ألف جندي للسلطان عام ١٣٧٩ والفرق البيزنطية هي التي أجبرت بأمر جون السابع باليولوجس مدينة فيلادلفيا البيزنطية بأسيا الصغرى على التسليم للأتراك (١٣٩٠) .

ولما واصل بايزيد حصار القسطنطينيين (١٤٠٢) كانت الإمبراطورية البيزنطية قد انحسرت في عاصمتها . وسيطر بايزيد على شاطئ بحر مرمره وتحكم في الدردنيل وحكم معظم آسيا الصغرى والبلقان تقريباً وتنقل في أمن بين عواصمه الآسيوية والأوربية . ويبدو أن الساعة الأخيرة للمدينة المحاصرة قد حانت . وكان اليونان المشرفون على الموت جوعاً يلقون بأنفسهم من الأسوار ، ويلجأون إلى الأتراك لكي يطعموا . وفجأة ظهر من الشرق الإسلامي مخلص « كافر » للحدود الأمامية للعالم المسيحي . وهو تيمور الأعرج - أي تيمورلنك الكبير - الذي عزم على أن يضع حداً لنمو القوة العثمانية ووجودها . ولما أخذت حشود التتار تطوى الأرض متجهة إلى الغرب رفع بايزيد الحصار عن القسطنطينية وعاد ليعيد جمع قواته في الأناضول . والتقى التتار والأتراك في أنقره (١٤٠٢) فهزم

بايزيد ووقع أسيراً وانحسر المد التركي فترة جيل . وبدا أن الله قد ناصر آخر الأمر المسيحيين .

واستعادت بيزنطة بفضل حكم عمانويل الثاني السيد ، معظم اليونان وأجزاء من تراقية . ولكن محمد الأول أعاد تنظيم الجيش التركي وتحول به مراد الثاني من الهزيمة المنكرة إلى انتصارات باهرة . وكان جنود الإسلام لا يزالون ، يستلهمون من اعتقادهم بأن الشهيد في سبيل الإسلام له الجنة ، وحتى ولو لم تكن هناك جنة وحوار عين ، فإن فيهم من الإنصاف ما يجعلهم يرون الجمال في بنات يونان^(١) . أما المسيحيون فلم يكونوا على هذا القدر من الأنصاف . فإن اليونان الكاثوليك كانوا يمتنون الرومان الكاثوليك ، وكان الثريتان مكروهين بدورهما . ولما أخذ البنادقة يقنصون اليونان الكاثوليك في جزيرة كريت ويعملون السيف في رقابهم انضم البابا أربان الخامس إلى بترارك في تهنئة أمير البندقية على حمايته للكنيسة الواحدة الصادقة (١٣٥٠) ولقد نفر الشعب وصغار القساوسة من كل محاولة لإعادة توحيد المسيحية اليونانية واللاتينية - وصرح أمير بيزنطى بأنه يفضل أن يرى العمامة التركية في القسطنطينية على القبعة الحمراء لكاردينال روماني . وكرهت معظم الحكومات البلقانية جيرانها أكثر من كراهيتها للأتراك ، وآثر البعض أن يخضع للمسلمين ، الذين لا يفرضون ضرائب أكثر مما يفرضه الحكام المسيحيون واضطهادهم للهرطقة أقل أو هم لا يضطهدونها على الإطلاق ويسمحون بأربع زيجات .

وفي عام ١٤٢٢ أعاد مراد الثاني الهجوم على القسطنطينية . وأرغمته ثورة في الولايات البلقانية على رفع الحصار . وسمح لجون الثامن بالبولوجس أن يحكم في سلام نسبي بشرط أن يدفع جزية باهظة للأتراك . وأعاد مراد فتح اليونان وسالونيك ومعظم ألبانيا . وقاومت الصرب ببساطة تحت إمرة

(١) أثبتت الوقائع قوة إيمان المسلمين وهو الإيمان الذي جعلهم يطوون رتعة الأرض بالفتوح على الرغم من قلة عددهم وعتادهم وأقام دوائى الفرس والروم . (المترجم)

جورج برانكوفتش ، وألحق جيش موحد من الصرب والهنغارين تحت إمرة هانبياد جانوس الهزيمة بمراد عند كونوفتزا (١٤٤٤) وحكم بارنكوفتش الصرب إلى أن مات بالغاً من العمر تسعين سنة (١٤٥٦) ووقع مراد ، بعد انتصارين في فارنا ووقعة قوصوه الثانية (١٤٤٨) ، صلحاً مع الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر باليولوجس وانسحب إلى أدرنه ومات هناك (١٤٥١) .

ولقد جاس محمد الثانى الملقب بالفاتح على العرش العثمانى وهو فى الواحدة والعشرين من عمره . وأيد المعاهدة التى أبرمت مع قسطنطين وأرسل ابن أخيه أورخان ليتعلم (وربما ليكون جاسوساً) فى البلاط البيزنطى ولما تحددت دول إسلامية أخرى سلطانه على آسيا الغربية جعل جنوده يعبرون المضائق وترك ممتلكاته الأوربية تحت إمرة وزيره خليل باشا المعروف بصداقته لبيزنطة . وكان قسطنطين يتحلى بالشجاعة أكثر من الذكاء ، فأبلغ الوزير أنه إذا لم يضاعف المعاش الذى يدفع لرعاية ابن أخى محمد فإن بيزنطة ستجعل أورخان مطالباً بالسلطنة العثمانية . ويبدو أن قسطنطين قد رأى أن الثورة فى آسيا فرصة لإضعاف الأتراك فى أوربا . ولكنه أهمل أن يحافظ على محالفاته فى الغرب ومواصلاته بالجنوب . وعتمد محمد الصلح مع أعدائه من المسلمين ومع البندقية وولاشيا والبوسنة وهنغاريا . وعبر ثانية إلى أوربا وشيد حصناً منيعاً على البوسفور مشرفاً على القسطنطينية ، ومن ثم أمن المعبر المكشوف الذى تجوزه جنوده بين القارتين ، وتحكم فى التجارة كلها التى تدخل البحر الأسود . وظل ثمانية أشهر يجمع المواد والرجال . واستأجر صناع المدافع المسيحيين ، ليصنعوا له أكبر مدفع عرف لذلك العهد ، يرمى بقذائف وزنها ستمائة رطل ، وفى يونيه عام ١٤٥٢ ، أعلن الحرب ، وبدأ الحصار الأخير للقسطنطينية ومعه مائة وأربعون ألف رجل .

ودافع قسطنطين بعزم اليائس وجهاز جنوده السبعة آلاف بمدافع صغيرة ورماح وقسى وسهام ومشاعل وبنادق ساذجة ترمى قذائف من الرصاص فى

حجم الجوزة ، وكان لا ينام إلا لحظات خاطفة ، وأشرف كل ليلة ، على إصلاح ما يصيب الأسوار من عطب في غضون النهار . ومع ذلك فإن الحصون القديمة أخذت تنهار أكثر فأكثر تحت وطأة قذائف المنجنيق ومدفعية الأتراك المتفوقة ، وهكذا انتهى تحصين المدن في القرون الوسطى بالأسوار .

وفي التاسع والعشرين من مايو شق الأتراك طريقهم عبر خندق مكتظ بجثث قتلاهم ، ودخلوا كالموج المتلاطم من فوق الأسوار ومخترقين إيانا إلى المدينة التي أخذها الفزع من كل جانب ، وضاعت حشجة المختصرين في طول الموسيقى العسكرية وأبواقها . وحارب اليونان بشجاعة آخر الأمر ، وكان الإمبراطور الصغير في كل مكان من حومة الوغى ، واستشهد النبلاء الذين كانوا معه عن بكرة أبيهم دفاعاً عنه . ولما أحاط به الأتراك صاح قائلاً : « ألا يوجد مسيحي يضرب عنقي » . وخلع عن نفسه رداءه الإمبراطوري وحارب كجندي عادي واختفى في طريق جيشه الصغير ، ولم يسمع عنه شيء قط بعد ذلك .

وقتل المنتصرون الألوف ، حتى توقفت كل محاولة للدفاع . ثم بدأوا النهب والسلب المنهى يجنح إليه الظافرون والذي طال تعطشهم إليه ، وأخذ كل بالغ ينتفع به في العمل غنيمة ، واغتصبت الراهبات كغيرهن من النسوة في ثورة من الشهوة لا تعرف التمييز ، ووجد السادة والخدم من المسيحيين بعد أن زال عنهم الكساء الذي يدل على مكائهم ، أنفسهم متساوين فجأة في العبودية التي لا تميز فيها وكبح جماح النهب والسلب هوناً ما ، فعند ما رأى محمد الثاني رجلاً مسلحاً تدفعه عاطفته الدينية يتلف الممر الرخامي لكنيسة القديسة صوفيا ، ضربه بسيفه الملكي الأحذب ، وأعلن أن كل المباني يجب أن تصان لتكون غنيمة ينظمها السلطان . وحولت كنيسة القديسة صوفيا إلى مسجد بعد التطهير المناسب فأزيلت عنها كل الأمارات المسيحية ، وطلبت سيفساؤها بالبياض ونسى ما كان عليها خمسمائة سنة ، وصعد مؤذن في نفس اليوم الذي

سقطت المدينة فيه أو في يوم الجمعة التالي له إلى أعلى برج من أبراج أيا صوفيا ودعا المسلمين للصلاة فيها جماعة لله الناصر ؛ وأدى محمد الثاني فريضة الصلاة في أشهر مزار في العالم المسيحي .

وهز الاستيلاء على القسطنطينية كل عرش في أوروبا . فقد سقط الحصن الذي طالما حمى أوروبا من آسيا أكثر من ألف سنة ، فإن القوة والعقيدة الإسلاميتين اللتين أمل الصليبيون في ردهما إلى داخل آسيا ، قد شقتا الآن طريقهما على جثة بيزنطة ، وعبرتا البلقان إلى أبواب هنغاريا ؛ ورأت البابوية ، التي حلمت بإخضاع جميع المسيحيين اليونان لحكم روما ، بفرع سرعة تحول الملايين من سكان جنوب شرقى أوروبا إلى الإسلام . وأصبحت طرق التجارة التي كانت مفتوحة في يوم من الأيام للسفن الغربية في يد أجنبية ، تفرض عليها المكوس في وقت السلم أو تسدها المدافع في وقت الحرب ، وهجر الفن البيزنطى موطنه وبلأ إلى روسيا . بينما اختفى تأثيره في الغرب بالقضاء على عزمه . وأخذت هجرة العلماء إلى إيطاليا وفرنسا ، التي كانت قد بدأت عام ١٣٩٧ ، تزداد وتثمر في إيطاليا الدعوة إلى إنقاذ اليونان القديمة . وإذا أخذنا بوجه من الوجوه فإنه لم يضع شيء ، إلا أن الموتى قد ماتوا . فقد أتمت بيزنطة دورها ، وأسلمت مكانها ، في موكب الإنسانية الذي يتألف من البطولة والقتل ومن النبل والحسة .

٤ - هانيادى جانوس (١٣٨٧ - ١٤٥٦)

وكان سكان هنغاريا البالغ عددهم حوالى سبعمائة ألف في القرن الرابع عشر مزيجاً من المجر والبانونيين والسلوفاك والبلغار والخزر والباتريناك والكومان والسلافونيين والكرواتيين والروس والأرمن والولاشيين والبوسنويين والصرب . والخلاصة أن أقلية من المجر كانت تحكم الأغلبية من الصقالبة . وبدأت تتكون في المدن الناشئة إبان القرن الرابع عشر طبقة وسطى تجارية وأخرى من عمال

الصناعة - ولما كان هؤلاء . في الغالب مهاجرين من ألمانيا وفلاندر وإيطاليا
فقد أضيفت خلافات عنصرية إلى الكيان الجنسي المعقد .

وانتهت بموت أندرو الثالث أسرة أرباد المالكة (٩٠٧ - ١٣٠١) ،
فقسمت الحرب التي اشتجرت في سبيل العرش الأمة أكثر مما هي عليه ،
ولم يعد السلام إلا عندما جعلت الطبقة العليا من النبلاء الملكية بالانتخاب ،
ووضعوا تاج القديس ستيفن على رأس تشارلز روبرت أمير أنجو
(١٣٠٨) : فأحضر معه أفكار فرنسية من إقطاع وفروسية وفكرات
إيطالية عن التجارة والصناعة فنهض بمناجم الذهب الهنغارية وشجع
المشروعات وضرب السكة ، وطهر القضاء ومنح الأمة إدارة مناسبة .
وأصبحت هنغاريا في عهد تشارلز وابنه لويس دولة غربية وذلك رغبة
في الحصول على معاونة الغرب أمام الشرق المتكاثر .

وكتب فولتير « لقد حكم لويس الأول هنغاريا حكما سعيدا أربعين
سنة (١٣٤٢ - ٨٢) » وحكم بولنده اثنتي عشرة سنة (حكما غير موفق
كذلك) - ولقبه شعبه بالكبير ، الذي يستحقه عن جدارة ، ومع ذلك
فإن هذا الأمير قلما يعرف في أوربا (الغربية) لأنه لم يحكم قوماً
يستطيعون أن ينقلوا شهرته وفضائله إلى أمم أخرى . وما أقل الذين يعلمون
أنه كان في القرن الرابع عشر ، لويس الكبير في جبال الكربات . . .
ومزجت أخلاقه بين الثقافة المدنية ومشاعر الفروسية بالحمية والقدره
العسكريتين : ولقد انغمس في الحروب بين حين وآخر ليثأر لمقتل أخيه في
نابلي وليستعيد من البندقية الثغور الدلاشية التي اعتبرتها هنغاريا زمناً طويلاً
منازلها إلى البحر ، وليضع حداً للتوسع العدواني للصرب وتركيا وذلك
يجعل كرواتيا والبوسنة وبلغاريا الشمالية تحت سيطرة هنغاريا ونشر بالقدره
والمبدأ مثل الفروسية الأعلى بين النبلاء ، ورفع مستوى الأخلاق والعادات
بين شعبه . وحقق الفن القوطي الهنغاري في عهده وعهد أبيه أجمل آثاره ،

ونحت نيقولاس كولوزفارى وأبناؤه من التماثيل البارعة مثل تمثال القديس جورج الذى يوجد الآن فى براغ . وأسس لويس عام ١٣٦٧ جامعة بيس ، ولكنها اختفت مع الكثير من أمجاد هنغاريا فى القرون الوسطى فى الصراع الطويل المضى مع الأتراك .

واستمع سيجسموند الأول وهو زوج ابنة لويس بحكم كان من الممكن أن يودى طوله (١٣٨٧ - ١٤٣٧) إلى وضع سياسة طويلة بعيدة النظر . ولكن أعماله كانت فوق طاقته . فقاد جيشاً جراراً ضد بايزيد فى نيكوبوليس ، ولم ينج من الكارثة إلا بحياته . وأدرك أن الزحف التركى قد أصبح أخطر مشكلات أوربا ، وبذل عناية فائقة وأموالاً لا تكتفى لتحصين الحدود الجنوبية ، وشيد عند ملتقى الدانوب بالساف حصن بلغراد الكبير . بيد أن انتخابه لإدارة الإمبراطورية جعله يهمل هنغاريا إبان غيبته الطويلة فى ألمانيا ، كما أن حصوله على تاج بوهيميا قد وسع من مسئولياته دون أن يزيد فى قدراته .

وغزا الأتراك المنتشرون هنغاريا بعد سنتين من وفاته . وأثرت الأمة فى هذه الأزمة أشهر أبطالها . ولقد حصل هانيدى جانوس على لقبه من قاعة هانيدى فى ترانسلفانيا ، وهو معقل منيع منح لأبيه لحسن بلائه فى الحرب ودرب جانوس - أى جون - على الحرب كل يوم تقريباً فى صباه . وبرز بانتصاره على الأتراك فى سيمندريا ، وجعله الملك الجديد ، لاديسلاس الخامس ، كبير القواد على الجيوش التى تقاوم الأتراك . وأصبح رد العثمانيين على أعقابهم هو الشغل الشاغل فى حياته . فلما دخلوا ترانسلفانيا قاد لمحاربتهم فرقة حديثة التنظيم تلهبها وطنيته وقيادته . وفى هذه الموقعة بذل سيمون كيميى ، الأثير فى الأدب الهنغارى ، حياته فى سبيل قائده . وكان قد علم أن الأتراك طلب إليهم أن يفتشوا عن هانيدى ويقتلوه ، فناشد سيمون قائده أن يتبادل الأزياء وإياه فسمح له بذلك .

ومات تحت وطأة الهجمات المركزة عليه ، بينما قاد هانياى الجيش إلى النصر (١٤٤٢) وأرسل مراد الثانى فرقا جديدة تتألف من ثمانين ألف رجل إلى الجبهة ، فاستدرجهم مخيلا إليهم أنه يتراجع ، إلى ممر ضيق - لا يسمح إلا لجزء يسير منهم بالقتال دفعة واحدة ، وانتصرت خطة هانياى مرة أخرى . وأزعجت مراد الثورات فى آسيا ، فسعى إلى الصلح ووافق على دفع تعويض ماضى . فوقع الملك لاديسلاس وحلفاؤه هدنة مع مندوبين عن مراد ، هدنة تدعو الفريقين إلى الإخلاق إلى السلم . وأقسم لاديسلاس على الكتاب المقدس ، وأقسم سفراء الترك على القرآن (١٤٤٢) .

ولكن الكاردينال جوليانو شيزاريني ، القاصد الرسول فى بودا ، ما لبث أن وجد الوقت مناسباً للهجوم . فإن مراداً أخذ ينقل جيشه إلى آسيا وبذلك يستطيع أسطول إيطالى يتحكم فى الدردنيل أن يحول بينه وبين العودة واحتج الكاردينال الذى عرف باستقامته وقدرته ، بأن القسم لكافر لا يقيد المسيحى . ونصح هانياى بالإخلاق إلى السلم ، وأبت الفرقة الصربية أن تحتث بالقسم . ووافق مندوبو الأمم الغربية شيزاريني ، ووعدوا بأن يسهموا بالمال والرجال فى حرب صليبية مقدسة . ولم ير لاديسلاس بدا من التسليم ، وقاد بنفسه هجوماً على مواقع الأتراك . ولم يأت للمدد الموعود من الغرب ، وراغ الجيش العثمانى المؤلف من ستين ألف رجل من الأشداء ، من أمير البحر الإيطالى وعبروا عائدين إلى أوروبا . وفى فارنه بالقرب من البحر الأسود ألحق مراد هزيمة منكرة بجند لاديسلاس البالغ عددهم عشرين ألفاً (١٤٤٤) وكان حامل اللواء فى الجيش التركى يرفع المعاهدة المتهنة على رمح . فنصح هانياى الملك بالانسحاب ولكنه أمر بالتقدم . وناشده هانياى أن يبقى فى المؤخرة ، بيد

أن الملك اندفع إلى المقدمة ، وقتل . ولم يسترد شيزاريني شرفه
يبدل حياته .

وحاول هانيادي بعد ذلك بأربع سنوات أن يرفع البلاء . فشق طريقه
عبر الصرب المعادية له ، والتقى بالأتراك في قوصوه في معركة حامية
استمرت ثلاثة أيام . واندحر الهنغاريون ولاذ معهم هانيادي بالفرار ،
واختفى أياماً في بطيحة ماء ، وبرز ، بعد أن أشرف على الموت جوعاً .
فعرفه الصرب وأسلموه إلى الأتراك . وأطلق سراحه بعد أن وعد بالألا
يقود جيشاً على أرض الصرب بعد ذلك .

وفي عام ١٤٥٦ حاصر الأتراك بلغراد . وصوب محمد الثاني على
القلعة المدفعية الثقيلة التي هدمت أسوار القسطنطينية . ولم يعرف الأوربيين
قبل ذلك قصفاً عنيفاً بالقنابل كهذا . وقاد هانيادي الدفاع بحنكة وشجاعة
لم يغفلهما الشعر الهنغاري قط . وآثر المحاصرون ، آخر الأمر خوض المعركة
على الموت جوعاً ، فاندفعوا من الحصن ، وشقوا طريقهم إلى المدفع
التركي ، وهناك انتصروا على العدو انتصاراً حاسماً فتخلصت هنغاريا
ستين سنة بعد ذلك من أى هجمة إسلامية . وبعد أيام قلائل من هذا
الدفاع التاريخي مات هانيادي بالحمى في خيمته . وتمجده هنغاريا باعتبار
أعظم رجالها .

٥ - المد في عنفوانه (١٤٥٣ - ٨١)

تابع الأتراك فتح البلقان واستسلمت الصرب آخر الأمر عام ١٤٥٩ ،
وظلت ولاية تركية إلى عام ١٨٠٤ . واستولى محمد الثاني على كورنثة
بعد أن حاصرها وأثينا دون أن يرفع ريحاً (١٤٥٨) ومنح الفاتح ،
مثله في ذلك مثل قيصر ، الآثينيين شروطاً سهلة احتراماً لأسلافهم وأبدى
اهتماماً ينم عن الثقافة بالآثار الكلاسية وحق له أن يبتهج ، لأنه لم ينتقم من
الصلبيين فحسب وإنما ثار لوقعة مرثون أيضاً . وقبلت البوسنة ، التي

لقبت عاصمتها وثغرها راجوسه بأثينا الصقلية لمظهرها الثقافي ، الحكم التركي عام ١٤٦٣ وقبلت الإسلام في يسر أذهل الغرب .

وكان أشجع غرماء الترك في النصف الثاني من القرن الخامس عشر هو اسكندر بك الألباني . واسمه الحقيقي جورج من كاستريوتا ، ولعله كان من أسرة صقلية متواضعة ، ولكن الأساطير المحببة لشعبه تجعله من أسرة ملكية أيروسية وتسبغ عليه شباباً مغامراً . ولقد أثبتنا أنه قدم في صباه رهينة لمراد الثاني ، وأنه نشأ في بلاط العثمانيين بأدرنة . وأحب السلطان فيه الشجاعة والاحتمال حتى عامله كأحد أبنائه وجعله ضابطاً في الجيش التركي . ودخل في الإسلام وسمى بهذا الاسم اسكندر بك - أي الأمير اسكندر - وبعد أن قاد الأتراك في وقائع كثيرة ضد المسيحيين ندم على ارتداده عن المسيحية واحتال للفرار . وأنكر الإسلام ، واستولى على العاصمة الألبانية كروجا من حاكمها التركي وأعلن العصيان (١٤٤٢) وأرسل محمد الثاني الجيش تلو الجيش لمعاقبته ، فهزمها جميعها اسكندر بك بسرعة تحركاته العسكرية وبراعته في المراوغة وشغل محمد بحروب أكبر ، فنحه هدنة عشر سنوات (١٤٦١) . ولكن مجلس شيوخ البندقية والبابا بيوس الثاني أقنعوا اسكندر بك بأن يخرج على الهدنة ويواصل الحرب (١٤٦٣) . وتوعد محمد المسيحيين باعتبارهم كفاراً حائثين بوعودهم وعاد إلى حصار كروجا . وأبلى اسكندر بك بلاءً حسناً في الدفاع عنها مما اضطر السلطان إلى رفع الحصار مرة أخرى ، وبين حطام النصر مات اسكندر بك (١٤٦٨) واستسلمت كروجا عام ١٤٧٩ ، فأصبحت ألبانيا ولاية تابعة لتركيا .

وفي الوقت نفسه ابتلع محمد الذي لا يشبع الموره وأطرابزنده ولسبوس ونجروبونت (أثيوبيا القديمة) والقرم . وفي عام ١٤٧٧ عبر جيش من

جيوشه الأيزونزو وخرّب الجانب الشمالى الشرقى لإيطاليا على مسيرة اثنين وعشرين ميلاً من البندقية وعاد إلى الصرب محملاً بالغنائم . وسامت البندقية التى استولى عليها الفرع والتى حاربت طويلاً دفاعاً عن ممتلكاتها فى بحرى ايجيه والأدرىاتى ، بكل حق لها فى كروجيا وسكوتارى ، ودفعت تعويضاً مقداره عشرة آلاف بندقى (١) . أما أوروبا الغربية التى فشلت فى معاونة البندقية ، فقد أنكرت عليها أن تبرم وتحافظ على الصلح مع الكافر . ووصل الأتراك بذلك إلى الأدرىاتى ، ولم يعد هناك ما يفصلهم عن إيطاليا وروما والفاثيكان ، غير جانب ضيق من البحر ، عبره قيصر بقارب صغير . وفى عام ١٤٨٠ أرسل محمد جيشاً عبر هذا الجانب الصغير لمهاجمة مملكة نابولى . واستولى على تورنتو فى يسر ، وأعمل السيف فى نصف عدد السكان البالغ اثنين وعشرين ألف نسمة ، واسترق الباقين وشطر أحد كبار الأساقفة نصفين . وأصبح مصير المسيحية ووحداية الزوجة معلقاً فى كفة ميزان . وأنهى فيرانت ملك نابولى حروبه مع فلورنسه ، وأرسل خير فرقة لاستعادة تورنتو . وكان محمد قد ورط نفسه فى حصار رودس ومات أثناء المغامرة ، وظلت رودس مسيحية إلى عهد سليمان ورفع الأتراك قبضتهم عن تورنتو وعادوا إلى البانيا (١١٨١) . وتوقف المد العثمانى عن السير لحظة .

٦ - النهضة الهنغارية (١٤٥٦ - ٩٠)

فى نصف القرن الذى ظفر فيه هانيادى لهنغاريا بالأمن ، قاد ابنه ماتياس كورفينوس بلاده إلى أوجها التاريخى . وكان فى السادسة عشرة من عمره

(١) الدوقات هى البندقى ، عملة أجنبية قديمة تناسب إلى البندقية وتشمّل أيضاً عياراً للذهب .

فقط عند جلوسه على العرش ، ولم يكن فيه سمت الملوك ، إذ كانت ساقاه قصيرتين -- بالقياس إلى جذعه ، ولا يبدو طويل القامة إلا إذا امتطى صهوة جواد ، ومع ذلك فقد كان له صدر مصارع وذراعه وقوته وإقدامه ، وبعد تتويجه بوقت غير طويل تحدى إلى مبارزة فردية فارساً ألمانيا ضخماً الجثة عظيم القوة ، صرع في جولة واحدة في مدينة بودا جميع منافسيه ، وتوعد ماتياس غريمه بأن يشنق إذا أخفق في المبارزة بكل ما أوتي من عزيمة وبراعة . وأكد المؤرخون الهنغاريون بأن الملك الشاب وقد حضره هذا المأزق العصيب قضى على العملاق قضاء مبرماً . وأنضجت الأيام ماتياس حتى أصبح جندياً بأسلاً وقائداً محمكاً ، فهزم الأتراك كلما التقى بهم ، واستولى على مورافيا وسيليزيا ولكنه أخفق في فتح بوهيميا وخاض أربعة حروب ضد الإمبراطور فريدريك الثالث ، وأخذ فينا وألحق بها النحسا (١٤٨٥) ، وكانت الإمبراطورية النمساوية الهنغارية في الواقع هنغارية .

وجعلت انتصاراته الملكية متفوقة على طبقة النبلاء بعض الوقت ، وكانت مركزية الحكم هنا كما كانت في غرب أوروبا طابع العصر ، وضارع بلاطه في بودا وفي القصر الملكي في فيسجراد أية أبهة ملكية وجدت في ذلك العهد ، وأصبح كبار النبلاء خدامه ، واشتهر سفراؤه بفخامة أرديتهم وخدمهم وحشمهم ، وكانت دبلوماسية ماتياس ماكرة غير مترددة ، ودودة سخية ، فقد اشترى بالذهب ما يكلف ضعفه بالحرب ، ووجد في الوقت نفسه الوقت والحماسة لإصلاح كل إدارة في الحكومة ، ويعمل بنفسه كإداري يقظ وقاض إمبراطوري . وأخذ يتجول متخفياً بين أفراد الشعب والجنود والمحاكم ، فاختبر لتوه سلوك موظفيه ، وأصلح من شأنهم بالمنافسة والعدل وبغير محاباة أو خوف وعمل ما يستطيعه لحماية الضعيف من القوي ، والفلاحين من سادتهم المغتصبين . وبينما استمرت الكنيسة تزعم أن البلاد ملك بابوي ، فإن ماتياس قد بين ونظم تعيين الأساقفة واستمتع بحماسته عندما

عين صبيا إيطاليا في السابعة من عمره كبير أساقفة هنغاريا فأرسل تجار مدينة فرارا ، رداً على هذه الفكاهة ، إلى كبير الأساقفة الحديد مجموعة من اللعب .

وتزوج ماتياس عام ١٤٧٦ بياتريس أميرة أرجون ، ورحب في هنغاريا بالروح النابولية المرححة والأذواق الإيطالية المصقولة لحفيدة الفونسو الهمام . وشجع الاتصال بين هنغاريا و نابولي تلك القرابة الأنجوية (١) بين الأسرتين المالكتين ، ولقد تعلم في إيطاليا كثير من رجال الحاشية في بودا . وتشبه ماتياس نفسه بالحكام المستبدين لعصر النهضة الإيطالية ، في نزعاته الثقافية إلى جانب اتجاهه المكيف في الحكم ، وأرسل لورنزو ده مدتشي نقشين بارزين من البرونز صنعها فيروكشييه وأوفد لودوفيكو أليورو ، ليوناردو دافنشي ؛ ليصور العذراء وطفلها للملك الهنغاري مؤكداً للفنان أنه من القلائل الذين يستطيعون تقدير الصورة العظيمة . وقام فيليبينولبي بعمل صورة أخرى للعذراء وطفلها وذلك لكورفينوس ؛ وزين تلاميذه القصر الملكي في إذترجوم بالصور الجدارية ؛ ووضع نحات إيطالي تمثالاً نصفياً لبياتريس ؛ ولعل الصائغ المشهور ، كارادوسو ، وهو من مدينة ميلانو هو الذي صمم صورة المسيح على الصليب البارعة في أذترجوم ؛ ونقش بينيدتو داميانو زخارف القصر في بودا ؛ وشيد إيطاليون مختلفون هيكل الكنيسة الصغيرة على طراز عصر النهضة في القسم الداخلي من العاصمة ؛

واتبع النبلاء والمطارنة الملك ، في رعاية الفنانين والعلماء ، بل إن المدن المشهورة بالتعددين في داخل البلاد قد وجد فيها من الأغنياء من يرفعون من قدر الثروة ، بالإتفاق على الفن ، وشيدت دور جميلة مدنية ودينية لا في بودا وحدها ولكن في فيزجراد وتانا وأنترجوم وناجيفا وفاك أيضاً ، وزين مئات

(١) نسبة إلى أنجو .

من النحاتين والمصورين هذه المباني . ووضع جيوفاني ديلانا تماثيل مشهورة لهانيادي جانوس وغيره من الأبطال الهنغارين وتألفت في كسا ، مدرسة صحيحة للفنانين ، ولقد نقش هناك « المعلم ستفين » وغيره ، للمذبح الكبير لكنيسة القديسة اليزابث ، حظاراً زخرفياً ، تبدو تماثله الأساسية إيطالية في صقلها ورشاقها وجمالها ، ونحت فريق آخر في الصخر لكنيسة بزترزبانيا نقشاً بارزاً عظيماً ، وهو « المسيح في بستان الزيتون » ، يدهش من رآه بتفاصيله الدقيقة وتأثيره الدرامي ، وظهرت قوة مماثله في التعبير والفن في الصور الهنغارية التي بقيت من ذلك العصر ، مثل ما نجده في « صورة مريم » تزور اليزابث ، رسمها « المعلم م . س » وهي الآن في متحف بودابست « ولقد تلف أوضاع كل الفن تقريباً الذي أثمرته تلك المرحلة المشرقة من تاريخ هنغاريا إبان الغزو العثماني في القرن السادس عشر ، وبعض التماثيل يوجد الآن في اسطنبول ، نقلها إليها الأتراك المنتصرون .

وكانت اهتمامات ماتياس أدبية أكثر منها فنية ، كما كان دارسو الكلاسيات الأجانب منهم والوطنيون محل ترحيب في بلاطه ، ويحصلون على رواتب كبيرة لوظائف اسمية في الحكومة . وكتب أنطونيو بوتفيني تاريخاً لهذا العهد بلغة لاتينية على منوال ليني ، وجمع جانوس فيتز ، كبير أساقفة حران ، مكتبة عامرة بالكتب الكلاسيكية القديمة ، وخصص الأموال لإرسال شباب الدارسين لتعلم اليونانية في إيطاليا . وأنفق أحد هؤلاء وهو جانوس بانونيوس سبعة أعوام في مدينة فرارا ، وسمح له بأن يكون في حلقة لورنزو بفلورنسة ، وأدهش البلاط بعد أن عاد إلى هنغاريا ، بأبياته اللاتينية ومحاضراته اليونانية . وكتب بوتفيني عندما تحدث بانونيوس باليونانية ، « نعتقد أنه لا بد وأن يكون قد ولد في أثينا » ولعل إيطاليا وحدها هي التي كان يجد فيها المرء ، مثل هذه الكوكبة من الفنانين والعلماء ويحصلون على معاش لهم في بلاط ماتياس ، وذلك في الربع الأخير من القرن الخامس عشر . وتعد الرابطة

الأدبية للدانوب من أقدم الجمعيات الأدبية في العالم ، وقد أسست في بودا عام ١٤٩٧ .

وجمع كورفينوس مثل معاصريه من آل المدتشي الآثار الفنية والكتب وأصبح قصره متحفا للتماثيل والقطع الفنية ، وتذهب رواية إلى أنه كان ينفق على الكتب ثلاثين ألف كرون كل عام ، وهي في أكثر الأحوال مخطوطات أنفق الكثير على تزيينها ولم يكن مع ذلك مثل فيديريجودا مونتيفلتر ويرفض الكتب المطبوعة ، فلقد أسست مطبعة في بودا عام ١٤٧٣ ، أي قبل دخول الطباعة إنجلترا بثلاثة أعوام . وكانت مكتبة كورفينوس التي ضمت عشرة آلاف مجلد عند وفاة ماتياس ؛ أحمل مكاتب القرن الخامس عشر خارج إيطاليا . ولقد وضعت هذه الكتب في قصره بمدينة بودا وخصصت لها قاعتان فسيحتان ؛ لهما نوافذ من الزجاج الملون تطل على الدانوب ؛ وكانت الرفوف كثيرة النقوش ؛ والكتب مجلدة في معظمها برق الغزال وعليها ستائر من الخمل المزركش . ويظهر أن ماتياس قرأ بعض هذه الكتب ، وتوسل بكتاب ليني على الأقل طلبا للنعاس ، ولقد كتب إلى أحد دارسى الكلاسيات « أيها العلماء ؛ ما أسعدكم ! إنكم لا تجاهدون في سبيل المجد المصبوغ بالدم ؛ وفي سبيل تيجان الملوك ؛ وإنما تجاهدون في سبيل أكاليل الغار التي تتوج الشعر والفضيلة . بل إنكم تستطيعون أن ترغمونا على نسيان ضجيج الحرب » . ولم تعش السلطة المركزية التي نظمها ماتياس إلا فترة وجيزة بعد وفاته (١٤٩٠) . ولقد بعثت قوة كبار الأمراء وسيطروا على لاديسلاس الثاني ، واختلسوا الموارد التي كان ينبغي أن تنفق على فرق الجيش فانفض الجيش وعاد الجنود إلى دورهم ؛ وبدد النبلاء ، الذين أعفوا من الضرائب ، دخلهم وجهدهم في حياة معركة صاخبة ، بينما كان الإسلام يهدد الحدود ، والفلاحون الذين استترفهم الاستغلال ؛ يتهيأون للثورة . وفي عام ١٥١٤ أعلن مجلس الدايت الهنغاري حربا صليبية على الأتراك ، وعن حاجته لمتطوعين واستجاب

جم غفير من الفلاحين لفساء الصليب إذا لم يجدوا فارقا كبيرا بين الحياة والموت . ولما وجدوا السلاح فى أيديهم ، انتشرت بينهم هذه الفكرة وهى لماذا ننتظر حتى نقاتل الأتراك البعيدين ، فى حين أن النبلاء المبعوثين قرييون ؟ وقادهم جندى اسمه جيورجى دوزا فى ثورة عارمة فاكتسحوا هنغاريا بأسرها ، يحرقون جميع القلاع ويقتلون جميع النبلاء الذين يقعون فى أيديهم - رجالا ونساء وأطفالا - فطلب النبلاء النجدة من كل ناحية . . . جنداً نظاميين ومرترقة ، وفاجأوا الفلاحين غير المنظمين وعذبوا زعماءهم تعذيباً مروعا . ومنع دوزا ومعاونوه الطعام أسبوعين . ثم ربط إلى عرش حديدي محمى بالنار ووضع على رأسه تاج محمى بالنار أيضا ، ووضع فى يديه صولجان محمى بالنار . وسمح لرفاقه المشرفين على الموت جوعا أن ينزعوا اللحم المشوى عن جسده وهو لا يزال حيا يعى . وقد تحتاج النقلة من الهمجية إلى الحضارة قرنا من الزمان ، أما التحول من الحضارة إلى الهمجية فإنما يحتاج إلى يوم واحد .

ولم يذبح الفلاحون لأنهم كانوا لا يعرضون بغيرهم ، ولكن القانون الثالث (١٥١٤) يقرر : « أن التمرد الحديث . . . يضع فى كل وقت وصمة الحياة على كاهل الفلاحين ، ومن أجل ذلك فقد تنازلوا عن حريتهم وأصبحوا خاضعين لسادتهم الملاك فى عبودية دائمة غير مشروطة وكل نوع من أنواع الملكية يحوزه الملاك الإقطاعى ، وليس من حق الفلاح أن يطالب العدل ويحتكم إلى القانون ضد أحد النبلاء .

وبعد ذلك باثنى عشر عاما سقطت هنغاريا فى يد الأتراك .